(١١)

الناس أصناف أربعة[١]

الحمد لله، لا يزيد في ملكه حمد الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين.

الحمد لله. لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية: ١٥]

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدي الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا علي المحجة البيضاء، علي الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضي الله عمن دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

واحشرنا اللهم في زمرة هؤلاء الطيبين، يوم يحشر المتقون إلي الرحمن وفدا ويساق المجرمون إلي جهنم وردا.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

أصناف الناس:

الناس في هذه الدنيا أصناف شتّي، وأنواع كثيرة:

١ـ صنف يعيش للشهوة، فهذا حيوان.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة: ٦ شعبان ١٣٧٣هـ الموافق ٩ إبريل ١٩٥٤م.

٢- صنف يعيش للأذي: فهذا سبع.

٣- صنف يعيش للباطل: فهذا شيطان.

٤- صنف يعيش للحق: فهذا ملاك.

الصنف الأول: من يعيش لشهوته:

من الناس من يعيش في هذه الدنيا ولا غاية له، ولا مبدأ له، ولا فكرة له، ولا هدف له، تسأله كيف يعيش؟ ولم يعيش؟ وإلي أين يسير؟ وفي أي طريق يمشي؟ فلا يعطيك جوابا، بل ربما لا يعرف معني السؤال.

هذا جحد نعم الله الكبري عليه. فلماذا أنزل الله له الكتب؟ ولماذا أرسل له الرسل؟ ولماذا منحه العقل الذي به يميز؟ والقلب الذي به يحس؟ والإرادة التي بها يرجح ويختار؟

هذا لم يعرف قدره، فتراه حيا كميت، وموجودا كمفقود، وإنسانا كحيوان. همّه كما قال القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

هذا صنف من الناس لا يمكن أبداً أن نعده في زمرة الإنسانية، وأن نحسبه علي الطائفة البشرية. يعيش في الدنيا كأنه ليس منها، يعيش كأنه ليس فيها، لا يحس بالحياة، ولا تحس به الحياة، لا يشعر بحقيقة الوجود، ولا يشعر بسر الوجود، هذا هو الصنف الذي حدثنا عنه الله تبارك وتعالي فقال: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لهم حواس ولهم مشاعر؛ ولكنهم عطّلوها، وغطوا عليها، وأهملوها. فكانوا كالأنعام؛ بل كانوا أضل من الأنعام، وإنما كانوا أضل من الأنعام، وكانوا أحط درجة، وأنزل شأنا لأن الحيوان معذور.

لماذا هذا الصنف أضل من الأنعام؟

وهذا الصنف من الناس أضل من الأنعام لحقيقتين:

الحقيقة الأولي: أن الأنعام لا عقل لها تفكر، ولا حسّ به تشعر، ليس لها تلك القلوب الخافقة، وليس لها تلك الأنفس الناضجة، وليس لها تلك الأفكار العالية، لم تنزل عليها الكتب، ولم ترسل إليها الرسل، فلا عجب إذا سارت وراء شهواتها، وانحطت في دركاتها، وانغمست في ملذاتها، أما هذا الإنسان العجيب الذي سخر الله له السماوات والأرض؛ ما عذره إذا أهمل سر الله في كيانه؟ لا عذر له.

لهذا كان مثل هذا الصنف من الناس أضل من الأنعام سبيلا!!

والحقيقة الثانية: أن الأنعام والبهائم، والجواميس والأبقار، والخيل والبغال والحمير: لها مهمة تؤديها، ولها رسالة لا تتأخر عن أدائها.

الجاموسة إذا دعيت للحرث والنسل لا تتردد، ولا تتأخر عن أن تجر المحراث، ثم هي تربي أولادها، ثم تأتينا باللبن خالصا سائغا للشاربين. فهي تؤدي مهمتها، وتقوم برسالتها، لا تتمرد ولا تعصي، فما بالك بالإنسان ومهمته عبادة الله وحده، وخلافة الله في هذه الأرض، فما بالك بهذا الذي لا يعرف مبدأ يعيش له، وإنما يعيش للشهوات، يعيش للبطن وللمعدة، يعيش للفرج وللغريزة، يعيش للمرأة، يعيش للهو واللعب، يعيش لهذه الغايات الضئيلة التي تفنى.

الصنف الثاني: من يعيش لأذي غيره:

وهناك صنف آخر: لا يكتفي فقط أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب؛ بل راحته في إيذاء الناس، وسعادته في ظلم الناس، طبيعته طبيعة الوحوش الضارية، والثعابين النفاثة، والعقارب اللادغة، لا يرتاح ولا ينشرح إلا بنفث السموم، تسمع له القول المعسول، واللفظ اللين، ولكنه يضمر في نفسه شرا.

لو كشفت عن أسنانه وأضراسه لوجدتها أسنان وحش ضار، وأنياب نمر

مفترس، ولو كشفت عن ثيابه لوجدت تحت الثياب كلبا عقورا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

لا تقل: إن هذا الصنف بشر، إنهم شر من السباع والوحوش، لأن الوحوش لا تؤذي فرائسها بقصد الأذي والعدوان، بل هي تقصد أن تشبع جوعها، وتملأ بطنها، بخلاف هؤلاء الذين يؤذون لغرض الأذي.

الصنف الثالث: من بعيش للباطل:

وهناك صنف ثالث: يعيش لمبدأ؛ ولكن لمبدأ باطل، ويحيا لفكرة؛ ولكن لفكرة ضالة، إنه قد ضل وخُدع، إنه قد غُرّر بعقله، وانحرف تفكيره، فسار وراء السراب يظنه ماء، وظن الورم شحما، وظن الشر خيرا والباطل حقاً، هذا هو المخدوع كما قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٤].

ولهذا كان من دعاء السلف: اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. وكان من دعاء المسلمين في كل يوم في سبع عشرة ركعة: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧].

المغضوب عليهم هم: الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه، خانهم الشيطان.. والضالون: هم الذين انحرفوا عن طريق الحق، لأنهم جهلوه ولم يعرفوه، أو التبس عليهم الحق بالباطل، واختلط عليهم الحابل بالنابل، كالذي ضل في الصحراء، فلم يعرف له وجهة: أبشرق أم بغرب؟

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم؛ غير المغضوب عليهم ولا الضالين.. آمين.

الصنف الرابع: من يعيش للحق:

وهناك صنف رابع: هو الذي يعيش لغاية كريمة، يعيش لمثلٍ عليا، يعيش لفكرة رفيعة، يعيش لهدف نبيل، يعيش لعقيدة سامية، ولمبدأ حق.

إنه لا يعتقد أن الله سبحانه قد هيّأ له هذا الكون، وأوجد فيه سر الحياة، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل؛ لا يعتقد أن هذا كله ليعيش عيشة الحيوان، بل ليعيش إنسانا كريما يرتفع بنفسه إلي الله تعالي، ويسمو بروحه إلي الملأ الأعلي، إلي الملائكة المقربين.

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ [البينة: ٧].

غايات نبيلة وأخري وضيعة:

لقد قال الله تعالي مبينا للناس الغايات الكريمة من الغايات الوضيعة: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٤ – ١٥]. هل أدلكم علي أفضل من الحرث والأنعام، والنساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة؟ نعم أنبئنا يا رب!! ﴿**لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾

[آل عمران: ١٧]

أولئك الذين عرفوا حقيقة وجودهم، أولئك الذين أدركوا سر حياتهم، أولئك الذين عرفوا أن كل ما في الوجود لا يساوي حبة خردلة، وأن الدنيا

بأرضها وسمائها، وبحارها وأنهارها، وزروعها وأشجارها، وجنّها وإنسها، وفضتها وذهبها، لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما شرب كافر منها شربة ماء[1].

تسبيحة أفضل من ملك سليمان!:

لقد حكوا أن سليمان بن داود مرّ بملكه العريض، وموكبه العجيب - فيه الجن والإنس والطير، من كل صنف ولون - علي رجل فلاح يلقي بذرته في الأرض، يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب، فرأي فخامة ملكه وضخامته؛ فقال معجبا بهذا الملك: لقد أوتيت يا ابن داود ملكا عظيما، فبلغت مقالته سليمان، فقال في معرفة المتواضعين وتواضع العارفين: والله لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود. فإن التسبيحة في صحيفة المؤمن تبقي، وما أوتي ابن داود يزول ويفني.

هذا هو منطق المؤمنين، هذا هو فقه أصحاب القلوب: الذين بحثوا عن السعادة الحق فوجدوها، ولم يضلوا الطريق إليها.

ليست هذه هي السعادة[2]:

إن السعادة ليست في المال؛ فالمال ظل زائل.

وليست في الجاه؛ فالجاه نجم آفل.

وليست في الأولاد؛ فالولد لا يبقي لك، وإن بقي فلن تبقي له.

وليست في الملك فالملك لا يدوم.

---

(١) إشارة: إلي حديث سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها شربة ماء» رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢١) وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٩).

(٢) لشيخنا حفظه الله في كتابه (الإيمان والحياة) موضوع نفيس عن السعادة بعنوان: (الإيمان والسعادة) وفيه يقول الشيخ: السعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده، إلي العامي في قاع سذاجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد، إلي الصعلوك في كوخه الصغير، ولا تحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضي بتعاستها.

إن كل ما في الدنيا ومن في الدنيا إلي زوال.. كل جمع إلى شتات.. وكل حي إلى ممات،.. وكل ملك إلى فوات..

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال؟
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بالزوال!

هذا هو شأن الدنيا!!

السعادة الحقة في القلوب:

لقد عرف أرباب العقول النيرة، وفقه أصحاب القلوب البصيرة: أن سعادة المرء ليست في مظهر من مظاهرها، ولا في مال من أموالها، ولا في عرض من أعراضها الزائفة، إنما سعادتها الحقة فيما ينبع من شغاف القلوب الطاهرة، وفيما يرفع إلي الله تبارك وتعالي من العمل الصالح.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، **﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾** [النساء: ١٣٩]

هكذا عرف المؤمنون.. وهكذا فقه العارفون.. وهكذا يتربي الشباب الطاهرون.

يريد العبد أن يُعطي مناه ويأبي الله إلا ما يريد
يقول العبد: فائدتي ومالي وتقوي الله أفضل ما يفيد
ولست أري السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

السعادة إذا ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة.

السعادة شيء معنوي لا يُري بالعين، ولا يقاس بالحجم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشتري بالدينار، ولا بالجنيه، أو الروبل، أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه.. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

هؤلاء هم الناس حقاً:

هذا الصنف الرابع هو الذي يعيش للغاية الحقة، يجب أن نعده وحده من الناس، ويجب أن نحسبه وحده من المؤمنين الصادقين.

إن الإنسان ليس إنسانا بضخامة جسمه، ولا بجمال منظره، ولا بفخامة مظهره، ولا بما أوتي من مال وجاه، وإنما هو إنسان بهذه المضغة التي بين جنبيه، هو إنسان بهذا القلب الذي به يصلح أو يفسد، ويسعد أو يشقي، قال تعالي: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٩].

وفي الصحيحين قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»(١).

فأصلحوا أيها الناس هذه القلوب.

كيف نعرف الحق من الباطل:

أيها الناس: بماذا نعرف المبدأ الحق من المبدأ الباطل؟

المبدأ الحق: هو الذي يتصل بالله تعالي، هو الذي يأمر به الله، لأن معني الحق: الثابت الذي لا يتغير.

فكل متغير وزائل هو الباطل: لا يملك أساسا له.

والحقيقة الثابتة في النفوس، الراسية في القلوب، التي لا يعتيرها تغيير ولا زوال هي: الله تبارك وتعالي: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [القصص: ٨٨].

فليس في الدنيا حق إلا الله.

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٠٢٨) رواه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير.

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]

إن كل ما تظنه في الدنيا مما سوي الله حقا، فأنت به مخدوع، فكم من شيء اعتقدت أنه حق وزال، ولكن الحق الباقي: هو الله تبارك وتعالي ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢]. من جهل هذا فى الدنيا سيعرفه في الآخرة.

من عميت عينه عنه اليوم فسينكشف الغطاء غدا ﴿ قَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢] ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥].

أيها الناس:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هذه أصدق كلمة قالها شاعر كما قال رسول الله ﷺ(١)، فقيسوا المبدأ الحق بصلته بالله، وبكتابه، وبدينه، وبرسوله. فهو الحق الذي لا يمكن أن يزول؛ مهما تألبت عليه القوي، وتجمع عليه الناس، وكاد له الكائدون، وتربص به المتربصون، فإن الله من ورائهم محيط، وإن ربك لبالمرصاد، وإن عين الله لا تغفل، وإن الله لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]

اختر لنفسك صنفاً:

أيها الناس: هؤلاء هم أصناف الناس:

صنف: ليس له فكرة ولا مبدأ ولا غاية، يعيش لبطنه وفرجه، ويدور حول

---

(١) إشارة إلي الحديث المتفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٤٥٤): (أصدق كلمة قالها الشاعر؛ كلمة لبيد . .) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) ومسلم في الشعر (٢٢٥٦) عن أبي هريرة.

أمعائه وأهوائه، ويحيا لمأكله ولمشربه، وللبسه أو مسكنه، لامرأته أو لأهله، أو لأولاده، يعيش لمصلحته الذاتية، ومنفعته الشخصية.

وصف ثان: يعيش لإيذاء الناس، كما تعيش العقارب، والثعابين، ولا يتمكن إلا ليتمكن لنفسه، ولا يحسن القول والكلام إلا ليجد الفرصة لإيذاء خلق الله.

وصنف ثالث: خُدِع عقله، فمشي وراء الأحلام ،وظن الباطل حقا، والضلال هدي، فهذا لا يهتدي حتي ينكشف له الغطاء، ويتضح الصبح لذي عينين، فإن الأمر سيظهر في الآخرة.

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [النور: ٣٩]

وصنف رابع: هو الذي يعيش لغاية، ويحيا لفكرة، ويعمل لهدف رفيع نبيل، فهؤلاء هم المؤمنون ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

فاللهم اجعلنا منهم، وانفعنا بهم.

يقول رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات؛ لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه – أي طلب البراءة لدينه وعرضه – ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام ، كالراعي يرعي حول الحمي، يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمي، ألا إن حمي الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

وقال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة، وفي رواية (إن الله لا ينظر إلي أجسادكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلي قلوبكم».

وقال ﷺ: «إن من ورائكم لفتنا كقطع الليل المظلم، للعامل فيها أجر خمسين منكم» قالوا: منهم يا رسول الله. قال: «بل منكم لأنكم تجدون علي الخير أعوانا، وهم لا يجدون علي الخير أعوانا»[1].

والحمد لله رب العالمين . . .

* * *

(١) قال الحافظ العراقي في الإحياء: أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه، وللحديث رواية أخري عند الطبراني في الكبير (١٧/ ١١٧) وفي الأوسط (٣/ ٢٧٢) عن عتبة ابن غزوان بلفظ: «من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: بل منكم» قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن شيخه بكر بن سهل عن عبد الله بن يوسف وكلاهما قد وثق، وفيهما خلاف (٧/ ٢٨٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٤).

(١٢)

جهاد الجزائر [١]

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلي الله عليه وعلي آله وصحبه، ومن نهج نهجه، واتبع سنته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد .. فيا أيها العرب أيها المسلمون:

هل أتاكم نبأ الجزائر المؤمنة المجاهدة؟ ذلك الجزء العزيز من وطننا العربي الكبير، والذي يُعد واسطة عقد المغرب العربي، وفلذة كبد العروبة في الشمال الإفريقي.

عطفتان مختلفتان:

إن الحديث عن الجزائر العربية يثير في النفس عاطفتين مختلفتين: يثير الغضب والحقد والكراهية إذا ذكرت فرنسا ووحشيتها، ويثير الإشفاق والإعجاب والتقدير إذا ذكرت الجزائر وبسالتها..

ثورة مدوية كأنها الرعد:

لقد نكبت الجزائر بالاستعمار الفرنسي في غفلة من الزمن سنة ١٨٣٠م، وكانت أول قُطْر عربي حلّت به كارثة الاستعمار. ولكن الجزائر الأبيّة لم تركع علي قدميها صاغرة، ولم تفتح ذراعيها للمستعمر، بل قاومت وصمدت، وبذلك وضحت غايتها، وقام أبناؤها بحركات عديدة ضد بغي فرنسا، قُتل فيها الألوف، وعشرات الألوف، وهُدمت منازل ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً،

---

(١) نص الخطبة التي أذيعت من إذاعة القاهرة من مسجد الزمالك، في أول رجب ١٣٧١ هـ الموافق ١٩٥٧م.

وأبيدت قري بأسرها، فلم يثن ذلك للجزائريين عزما، ولم يَفُلّ لهم حدّا، بل كانوا كالشعلة المتقدة كلما هبت عليها الريح زادت اشتعالا، ولم يزالوا مصممين علي التحرر من عبودية فرنسا، وتحطيم قيود الذل والهوان، حتي قامت ثورتهم المباركة الأخيرة منذ ثلاث سنوات، مُدويّة كأنها الرعد، كاسحة كأنها العاصفة، راسية كأنها الجبل، جبارة كأنها قدر من الأقدار.

وجُن جنون فرنسا، فجمعت جموعها، وحشدت جيوشها؛ تزحف من البر وتضرب من البحر وتقذف بالحمَم من الجو.

نصف مليون جندي فرنسي بكل ما لدي فرنسا من أسلحة حديثة بل بأسلحة أوربا الغربية، وحلف الأطلنطي كله، بهذا كله وقفت فرنسا تحارب جيش التحرير؛ المحدود العدد، الضئيل السلاح.

هل أخاف هذا العَدد والعدد أبناء الجزائر؟ لا. ثم لا. إنهم نظروا إليه نظرة خبير بشباب فرنسا المنحل المنهار، ورددوا ما قاله الرسول ﷺ حين نظر إلي جموع المشركين يوم هوازن: «تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله»(١) وكانوا مثالا رائعا للمؤمنين(٢) ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

جهود ابن باديس ورفاقه:

وطار لب فرنسا من تصميم الأحرار، وضربات المجاهدين؛ فاعتقلت الزعماء الخمسة، تحسب أن الثورة ستخمد نارها، وجهلوا أن حركة الجزائر ليست حركة أشخاص، ولكنها حركة أمة، ويقظة عملاق، وامتداد حضارة، وانتفاضة تاريخ.

إنها نتيجة تعليم طويل المدي وتربية عميقة الجذور لعلماء مخلصين ورجال مؤمنين ﴿ **صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١) عن سهل بن الحنظلية، والحاكم (٢/٩٣) والنسائي في الكبري (٥/٧٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣).

(٢) هم الصحابة الذين حضروا غزوة أحد، وقد جاءهم أن أبا سفيان ومن معه أجمعوا على السير إلي المدينة ليستأصلوا المسلمين، فقال الرسول ومن معه: ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾، قال ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها محمد ﷺ، حين قالوا (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ...) رواه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

إنها ثمرة لما غرسه الإمام المجدد: عبد الحميد بن باديس ورفقاء دربه: الإبراهيمي، وإخوانه من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، الذين وقفوا أمام الاستعمار الفرنسي يقاومون (فرنسته) بالأسلمة والتعريب وتجهيله للشعب بالتعليم، ويربون الجيل الحر الذي حمل اليوم السلاح ليحارب الوحش الاستعماري، أو الاستعمار الوحشي.

ابن باديس هو الذي حفّظ الشعب الجزائري النشيد الخالد:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسبْ
من قال: حاد عن أصله أو قال: مات قد كذبْ
حرب علي العروبة والإسلام:

أيها العرب أيها المسلمون: لقد عرف الفرنسيون المستعمرون أن قوام الشخصية الجزائرية هو العروبة والإسلام، فحاولوا بكل ما استطاعوا من قوة وكيد أن يحطموا تلك الشخصية لتنهار مقاومتها، ويذوب كيانها، ويسهل ابتلاعها وإدماجها.

حاربت فرنسا اللغة العربية، وأصدر أحد وزراء خارجيتها قرارا بأن اللغة العربية لغة أجنبية بالنسبة لجميع سكان الجزائر، واعتبر تعليمها «محاولة عدائية» ضد فرنسا لصبغ الجزائر بالصبغة العربية.

وحاربت فرنسا الحرة المتسامحة!! الدين الإسلامي حربا خسيسة فاجرة، وحسبنا هذا النص الواحد دليلا علي سياسة فرنسا مع الإسلام:

قال أحد الفرنسيين في الإدارة الإسلامية: (لقد بلغ مدي إذلالنا للدين الإسلامي أنه أصبح يتعين علي كل من يرغب في شغل منصب من مناصب الإمامة والإفتاء أن يعمل جاسوسا لفرنسا!! وهو لا ينال بعد ذلك تقدما أو ترقية إلا بقدر ما يظهر من وفاء، ويثبت من طاعة للإدارة العامة الفرنسية).

فشل ذريع لفرنسا:

تلك كانت سياسة فرنسا في قرن وربع قرن من الزمان: سياسة فرنسة الجزائر، وإلغاء شخصيتها العربية المسلمة. فهل أفلحت سياسة فرنسا؟ لا، وأيم الحق: إن جهودها الجبارة المتتابعة، المؤيدة بالحديد والنار، والعلم والمال، والخبث والدهاء؛ باءت بالفشل الذريع، وبقيت الجزائر عربية صريحة العروبة، مسلمة

عميقة الإسلام، وأضافت إلي كتاب العروبة والإسلام صفحة خلود جديدة، أثبتت بها أن العروبة أصلب عودا، وأشد قوة، وأن الإسلام أعظم صمودا واستعصاء علي كل محاولات الخادعين والمخادعين.

أيها المسلمون: لقد تجلّت الجزائر المؤمنة بربها وبنفسها وبحقها في جيش تحريرها المنصور، الذي ألقي علي الطغاة الفرنسيين دروسا بليغة في احترام الشعوب، وعلمهم أن في الزوايا خبايا، وأن في العرين أسودا لا يستباح حماها، وأن الجزائر ليست غنيمة باردة ولا لقمة سائغة، ولكن طعمها مر المذاق، ولحمها سم زعاف.

النعام تستأسد:

ولما فشل جيش فرنسا في مواجهة ثلاثين ألفا من المجاهدين الذين لا يملكون سوي البنادق والرشاشات ولّي وجهه شطر المدنيين الآمنين. جيش فرنسا الذي خر علي ركبته منذ الضربة الأولي للألمان سنة ١٩٤٠م، وفاز ببطولة العدو أمام جنود هتلر!! هؤلاء النعام يريدون أن يكونوا أسودا تثبت زئيرها ونابها ومخلبها، ولكن علي من؟؟ علي النساء الحوامل، والفتيات العذاري، والأطفال الرضع، والشيوخ المحطمين.

وحوش في لبوس بشر:

لقد صب الاستعمار الفرنسي جام غضبه علي القري الآمنة فحرق بلادا بأسرها، وهدم دورا ومنازل، وقتل أعدادا هائلة من الناس، وتفنن في صنوف التنكيل والتعذيب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت!

ألم تروا إلي القرية العامرة، تمر عليها في الصباح نابضة بالحياة آهلة بالسكان وادعين، وبالزراع كادحين، وبالأطفال لاعبين، فتمر عليها في المساء فلا تجد مكان الدور إلا خرائب، ولا مكان الحياة إلا موتا، ولا مكان الآدميين إلا أشلاء متناثرة: سلطت عليها الآلات الجهنمية فجعلتها حصيدا كأن لم تغن بالأمس؟

ألم تروا! إلي الرجل الأعزل، أو المرأة الضعيفة، أو الصبي الناعم الأظفار أمسك به كلاب الصيد من الفرنسيين فصبوا عليه صفائح البنزين، ثم أشعلوا في جسده النار؛ ليتلذذوا برؤية تلك الشمعة الآدمية وهي تحترق، وهم بين الضحك الوحشي، والعربدة النكراء؟!!!

ألم يأتكم حديث القرية الجزائرية التي دخلوا عليها كالريح العقيم، فساقوا أهلها كما يسوق الجزار الشياه إلي المجزرة، وأمروهم أن يخلعوا ملابسهم، ويعروا أجسادهم رجالا ونساء، كبارا وصغارا، تحت ضغط السياط التي تلهب الظهور، والمدافع المصوبة إلي الصدور، ثم يحدث ما يستحي من ذكره اللسان، وتقشعر من هوله الأبدان!!

وكم من سيدة شريفة أو فتاة عذراء قتلت من أجل ذلك نفسها؛ حتي لا تدنس عرضها!! وكم من رجال – بعد هذه المناظر – اعتصموا في الجبال مصممين علي الانتقام للعرض والشرف أو الموت في ميدان الجهاد.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فرنسا نسيت تاريخها:

أيها العرب أيها المسلمون:

تلك هي فرنسا!! مهد الثورة، وأم الحرية، وبلد الإخاء والمساواة. كما يزعمون ولا يستحون!!!

هي فرنسا!! التي سبرنا غورها، وعجنا عودها؛ فعرفتنا وعرفناها منذ قرون:

عرفتنا فرنسا في العصور الوسطي حين تكتل الغرب الصليبي للاعتداء علي الشرق الإسلامي، فلقنها صلاح الدين الأيوبي درسا قاسيا لم تكن لتنساه؛ فلما نسيته وعادت تزحف بجيوشها إلي مصر، واحتلت دمياط واتجهت نحو المنصورة لقيها جيش مصر، فهزمها شر هزيمة، وأخذ ملكها «لويس التاسع» أسيرا، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولم يفك أسره إلا بعد دفع فدية ضخمة، وأصبح الفرنسيون بعدها موضع الازدراء والسخرية، حتي تندر بهم الشاعر المصري ابن مطروح فقال:

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق عن قؤول فصيح

أتيت مصر تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح

وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسين ألفاً لا ترى منهمو غير قتيل أو أسير جريح

ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكمو يستريح

إذا كان باباكمو بذا راضيا فرب غش قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد قبيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح[1]

أيها العرب أيها المسلمون: اعرفوا عدوكم حتي تحذروا منه، وتُوجهوا القوي إلي حربه لتقتضي منا توحيد الجهود، وإعداد العدة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾[الصف: ٤].

وفي الحديث: يقول الرسول ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق علي المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[2].

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله ﴿ **بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩].

أما بعد:

أفليس من العجب أن يتفق الغرب المسيحي مع إسرائيل اليهودية؟ ولكن العارفين يعلمون أن الغرب الاستعماري لا دين له، كما أن إسرائيل الصهيونية لا دين لها: الاستعمار والصهيونية كلاهما لص عالمي مهمته أن يسرق ويقتل، وغايته خراب البلاد، وذل العباد، وإشاعة الفساد، لهذا تعاونا واتفقا ﴿ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الجاثية: ١٩].

---

(١) انظر: الحروب الصليبية: أسبابها نتائجها. حملاتها/ سيد علي الحرير – تحقيق عصام شبارو – ط. دار التضامن (١ /٢٥٣).

(٢) رواه مسلم في الجهاد (١٨٧٦) عن أبي هريرة.

لقد كان هناك في الماضي من يقول: (ما لنا وللجزائر الآن؟ نحن في قضية مصر؛ فكيف نوزع الجهود؟ ونبعثر القوي هنا وهناك) ولكنا عرفنا اليوم أن معركتنا – نحن العرب – واحدة، وإن نشب القتال في جبهات شتي، وأن عدونا واحد وإن ظهر في ثياب أشخاص متعددين. فإذا سدّدنا إلي هذا العدو سهما في أي شخص من أشخاصه وفي أي جبهة من جبهاته؛ فإنما نصيب أعداءنا جميعا.

وإن أية حركة تقوم بها – أيها العربي المسلم في مصر – لنصرة إخوانك الجزائريين ضد فرنسا أو لنصرة إخوانك اليمنيين ضد بريطانيا، أو لنصرة إخوانك الفلسطينيين ضد إسرائيل، إنما هي في الواقع حركة ضد الاستعمار والعدوان علي مصر.

يا ثمانين مليونا من العرب(١): جميل أن تُضْربوا من أجل الجزائر تعبيرا عن مشاعركم وإعلانا لتضامنكم، ولكن الأجمل والأحري: أن تتحول العواطف والمشاعر إلي مال وسلاح يقدمان للجزائر.

يا أربعمائة مليون من المسلمون: هبوا من مرقدكم فإن الإسلام يفرض عليكم أن تمدوا أيديكم، وتقفوا بجوار إخوانكم بالنفس والمال.

يا أحرار العالم، ومحبي السلام، وأنصار الإنسانية في كل مكان: ها هي فرنسا قد انتهكت حرمة المواثيق الدولية. واعتدت علي حقوق الإنسان، وأقامت من أهل الجزائر موانع بشرية واقية، فقولوا كلمتكم، وقفوا عدوان المعتدين، فقد قالت الجزائر كلمتها وسجلتها بالدم الزكي الغالي علي صفحات التاريخ.

أما أنتم – يا أبناء الجزائر الأعزاء – فامضوا علي بركة الله في جهادكم، فالعرب جميعا من ورائكم، ومئات الملايين من المسلمين بجانبكم، وجميع

---

(١) هذه الأرقام كانت في خمسينيات القرن الماضي، ولم تكن هي الأرقام الحقيقية للمسلمين أو العرب، وإنما كانت أعدادهم تفوق هذه بكثير.

الأحرار في صفكم، وجند السماء الخفي يحارب معكم، والله تعالي يؤيدكم بنصره، ويرعاكم بعينه، والعاقبة للمتقين، ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، و﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾

[الحشر: ١٠]

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وأقم الصلاة..

* * *